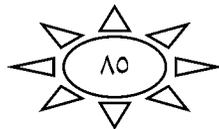


الفصل الثالث

الموشحات الأندلسية والأزجال



* الموشحات الأندلسية *

نشأ هذا الفن فى نهاية القرن الثالث الهجرى ، وبدأ يأخذ طريقه فى الحياة الشعرية الأندلسية ، كما كان له أثره الكبير بعد ذلك فى المشرق والمغرب على السواء .

ومن المعلوم أن الأندلسيين كأى شعب له أغنياته أو أعانيه التى لا تلتزم عادة بوزن أو قافية ، فكانت الموشحة فى صورتها تلك أكثر الألوان الفنية صلاحية وقبولاً فى الغناء ، خاصة وأنها قد استلهمت تلك الأغنيات المحلية هناك ، وأفادت منها فى منظوماتها ، إذ لم تتحرج من تدخل كلمات عامية أو ألفاظ سوقية، أو أمثال متداولة فأرضت أذواق الكثيرين ممن لا ينعمون بغناء الشعر الفصيح كما صادفت هوىً عظيماً فى نفوس الخلفاء والأمراء وذوى اليسار ، فكثرت بغنائها أو التغنى بها العطاء للوشاحين والمغنين ، وكُتِبَ لها الذيوع والانتشار فى الأندلس أكثر من غيرها ، وبدت جديدةً بنسبتها إليها ، حتى وإن كان لها بالفعل جذور وأصول شرقية كما تقول بعض كتب الأدب والتاريخ.

ويعتبر مقدم بن معافى القبرى أقدم من نظم فى هذا اللون الفنى فى أرجح أقوال الباحثين والمؤرخين ، كما ظهرت أسماء كثيرة لكبار الشعراء الوشاحين قبيل نهاية القرن الرابع الهجرى وحتى نهاية القرن الثامن الهجرى أيضاً نذكر منهم : عبادة بن ماء السماء وعبادة القرز (شاعر المعتصم بن صادق) وابن الباقية ٥٠٧هـ والأعمى التطيلي ٥٢هـ وابن باجة الفيلسوف ٥٣٣هـ وابن بقى ٥٤هـ وابن

سهل الأشبيلي ٦٤٩هـ ، ولسان الدين ابن الخطيب ٧٧٦هـ وفى النهاية أبو عبدالله بن زمرك وزير بنى الأحمر المتوفى ٧١٧هـ .

والموشحة في عمومها : منظومة غنائية يتغير فيها الوزن وتتعدد القوافي مع التزام التقابل فى الأجزاء المتماثلة (١) ، فهى من فنون الشعر العربى الذى يتخذ قوالب بعينها فى نطاق تعدد الأوزان .

ويشتمل كل موشح على سبعة أجزاء ، اصطلح عليها القائمون **بفن التوشيح وهى :-**

١. المطلع أو المذهب .

٢. الدور .

٣. السَّط .

٤. القفل أو المركز .

٥. البيت .

٦. الغصن .

٧. الخرجة .

وإليك نموذجاً لإحدى الموشحات ، نوضح عليه مكان كل جزء من هذه الأجزاء السبعة .

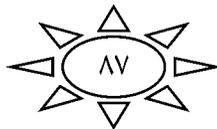
والموشحة المختارة لابن سهل الأشبيلي ٦٤٩هـ يقول فيها :-

هل دَرَى ظبىُّ الجِمَى أنْ حَمَى

قلب صَبَّ حَلَّه عن مُكْنِس

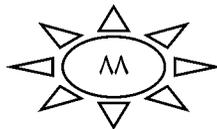
فهو فى حرٍ وخفقٍ مثلما

(١) انظر : الأدب الأندلسى - لأحمد هيكى - ص ١٤٣ .



لعبت ریح الصَّبَا بالقبس

يا بدوراً أطلعت يوم النوى
عزاً تسلك فى نهج الغرر
ما لعينى وحدها ذنب الهوى
منكم الحسن ومن عينى النظر
أجئتنى بالذات مكره الجوى
والتذانى من حبيبى بالفكر
وإذا أشكوه وجدى بسما
كالرُّبى والعارض المنبجس
إذ يقيم القطر فيه مأتماً
وهى من بهجتها فى عرس
من إذا أملى عليه حرمتى
طارحتنى مقتلناه الدنفا
تركت ألحاضه من رمقى
أثر النمل على صم الصفا
وأنا أشكوه فيما بقى
لست ألحاه على ما أتلفا
وهو عندى عادل أن ظلما
ونصيحى نطقه كالحرص



ليس لى فى الأمر حكم بعدما

حل من نفسى محل النفس

غالب لى غالب بالتؤدة

بأبى أفديه من جاف رقيق

ما علمنا قبل ثغر نضده

(١) أقحواناً عصرت منه رحيق

أخذت عيناه منه العريدة

وفؤأدى سكر، ما إن يفيق

فاحم الله معسول اللمى

(٢) ساحر الغنج شهى العس

وجهه يتلو " الضحى " مبتسماً

وهو من إعراضه فى " عبس "

أيها السائل عن جُرمى عليه

لى جزء الذنب وهو المذنب

أخذت شمس الضحى من وجنتيه

مشرقاً للشمس فيه مغرب

ذهبت دمعى أشواقى إليه

وله خدٌ بلحظى مذهب

^١ (الأَقْحوان : نوع من النبات زهره أصفر أو أبيض ، ورقه مؤل كاسنان المنشار ، وكثر فى الأدب تشبيه الأسنان بالأبيض المؤل منه .

^٢ (الفنج : الدل . العس : سواد مستحسن فى الثفة .

ينبت الورد بغرسى كلما

لحظته مقاتى فى الغلس

ليت شعرى أى شىء حرماً

ذلك الورد على المفترس

أنفدت دمعى نارى بى ضرام

تلتظى بى كل حين ما تشا

هى فى خديه برد وسلام

وهى ضرور حيق فى الحشا

أتقى منه على حكم الغرام

أسداً وُرداً وأهواه رشاً (١)

قلت لما أن تبدى معلماً

وهو من ألاحظه فى حرس

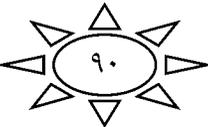
أيها الآخذ قلبى مغنماً

اجعل الوصل مكان الخمس (٢)

أما الأجزاء السبعة للموشحة المذكورة فهى على الترتيب كما

يلى:-

١- المطلع أو المذهب :



^١ (الأسد الورد : الجرى . الرشا : الظبى إذا قوى ومشى مع أمه .
^٢ (الخمس : خمس الغنيمة .

وهو اصطلاح يطلق على مطلع الموشحة ، ويتكون عادة من أربعة أشطر
(كما في الموشحة المذكورة) أو من شطرين فقط ، ويسمى كل شطر منها :
غصناً .

والمطلع فى موشحتنا هما البيتان الأويان " هل درى ظبى الحمى- إلي
آخرها .

٢- الدور :

وهو مجموعة من الأبيات التى تلى المطلع ، وهى فى موشحتنا ثلاثة أبيات
وهى الحد الأدنى للدور ، وهى المطلع العدى للدور وقد تزيد عن هذا بشرط أن تتكرر
بنفس العدد فى بقية الموشح ، وأن تكون من وزن المطلع مع اختلاف قوافيها عن
المطلع كما يشترط أن تتفق القوافى فى أشطر الدور الواحد ، والدور فى
موشحتنا هو :

يا بدوراً أطلعت يوم النوى

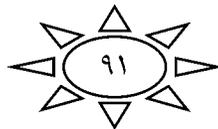
عزراً تسلك فى نهج الغرر

ما لعينى وحدها ذنب الهوى

منكم الحسن ومن عينى النظر

أجئتنى بالذات مكره الجوى

والتدانى من حبيبي بالفكر



فالدور كما نرى ثلاثة أبيات وهى من نفس وزن المطلع ولكن مع اختلاف قوافيها عنه ، أما أشطر الدور اليمنى فهى متفقة القافية وكذلك الأشطر الثلاثة اليسرى متفقة القافية أيضاً كما نرى .

٣- السمط :

وهو كل شطر من أشطر الدور الستة المذكورة : أما أشطر المطلع فيسمى كل منها غصناً (كما سيأتى في تعريف الغصن).

٤- القفل :

وهو ما يلى الدور مباشرة ، ويشبه المطلع من جميع نواحيه (في الوزن والقافية وعدد الأشطر أو الأغصان) .

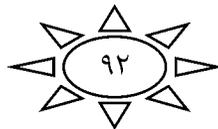
وتكون الموشحة كاملة إذا بلغت عدة أقفالها خمسة كموشحة ابن سهل التى معنا والقفل الذى معنا هنا هو :

وإذا أشكوه وجدى بسما

كالرنى والعارض المنجس

إذ يقيم القطر فيه مأتماً

وهى من بهجتها فى عرس



٥- البيت :

وهو مجموعة أبيات الدور والقفل معاً ، وعلى هذا فإن البيت فى الموشحة يختلف عن البيت فى القصيدة ، حيث لا يتجاوز فى الأخيرة شطرين أما فى الموشحة فكما نرى يتكون من عشرة اشطر (هى للدور والقفل معاً) .

٦- الغصن :

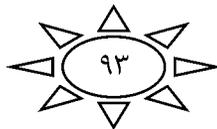
وهو كل شطر من اشطر المطلع أو القفل أو الخرجة وتتساوى الأغصان عدداً وترتيباً وقافيةً فى كل الموشحة ويجوز أن تتفق قافية الغصنين ، كما يجوز أن تختلف كما فى الموشحة المذكورة.

٧- الخرجة :

وهى القفل الأخير فى الموشحة ، ولكنها سُميت بذلك لوقوعها فى نهاية الموشحة أو أنها تُؤذن بالخرج من الموشحة بعد قراءتها .

ويلاحظ أن الموشحة قد تخلو من المطلع ، وتبدأ بالدور ولكنها لا يمكن أن تُسمى موشحة إذا خلت من الأقفال والخرجة ، فهى عصب الموشحة وأهم أجزائها . كما قد تكون الخرجة معربة إذا كانت فصيحة اللفظ والتركيب كما فى موشحتنا المذكورة ، ولكنها تسمى خرجة زجلية إذا كانت عامية أو أعجمية الألفاظ ، والخرجة الأعجمية كثيرة ومُستحسنة عند الأندلسيين ، وأسنا بحاجة لذكر نماذج لها .

هذا وما دام الموشح يمثل أحد الألوان الفنية فى شعرنا العربى ، فإن له نفس الموضوعات والأغراض التى يتناولها الشعراء فى مختلف قصائدهم ومنظوماتهم ومن أمثلة ذلك ما ذكرناه لابن سهل الأشبلى فى موشحتنا الغزبية



السابقة ، وما يمكن أن نضيفه أيضاً إلي ما للموشحات من أعراض مثل موشحة

أبى جعفر بن سعيد في وصف الطبيعة التي يقول فيها:

ذهبت شمس الأصيل فضة النهر

أى نهر لدامه

صير الظل فداه

نسجته الريح لاه

وثنت للغصن لاه

فهو كالعضب الصقيل حف بالشفير

مضحكاً ثغر الكمام

منكباً جفن الغمام

منطقاً ورق الحمام

داعياً إلي المرام

فلهذا بالقبول حط بالطر

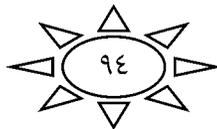
حبذا بالحوار معنى

هى لفظ وهو معنى

مذهب الأشجان عنا

كم درينا كيف سرنا

ثم فى وقت الأصيل لم تكن ندرى



قلت والمزج استدارا

بذرى الكأس سوارا

سالباً منا الوقارا

دائراً من حيث دارا

شبك الخمر

صار أطيّار العقول

وعد الحب فأخلف

واشتهى المطل فسوف

ورسولى قد تعرف

منه بما درى فحرف

لشئ يغيب بدرى

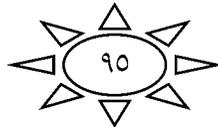
بالله قل يارسولى

فالشاعر كما نرى يجمع إلي الوصف فى موشحته وصف النهر، ثم يمنحه

ضرباً وأفانين من الألوان الزهية المبهجة للنفس، فشمس الأصيل تنعكس على

مائه الفضى فتبديه كالخمر، ثم يُبديه فى صورة السيف المصقول، يضحك أكمّام

الزهور، ويبكى الغمام وينطلق ورق الحمام يصف الحور وفتنة الروض التى توحى



بالشراب ، ثم يدفعه ذلك إلى الغزل فى الساقى ، وهذه الموشحة تشتمل على الأجزاء السبعة كسابقتها ولكن خرجتها عامية .

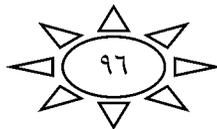
سادساً : الزجل : نشأته وتطوره :

ولعل الحديث عن فن الزجل بعد الحديث عن الموشحات يبدو أمراً منطقياً وطبيعياً ؛ لأن فن الموشحات قد اشتمل على بعض العبارات العامية أو الأعجمية فى الخرجات التى تُختم بها الموشحات ، وأحياناً فى كيانها وبنائها وهى بذلك تشكل الحلقة الوسطى بين الشعر الفصيح والشعر العامى الذى اصطلح النقاد والأدباء على تسميته بالزجل .

المفهوم والنشأة :

والأزجال جمع زجل ، وهو فى اللغة التنعيم والتطريب من زجل الحمام إذا غنى وطرب ، وقد أطلق الأندلسيون هذا الاسم على الشعر العامى المقابل للموشحات ، وفى هذه التسمية ما يدل على أنه كان يتغنى بهذه الأشعار العامية فى الطرقات والأسواق والمحافل العامة .

أما عن النشأة فقد ذهب بعض الباحثين - نظراً - للتشابه الموجود بين الزجل والموشحة من حيث الأقفال والأعنان ، وبعض الأجزاء الفنية الأخرى إلى أنهما قد ظهرا فى وقت واحد ونشأ معاً فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ولكن منطلق الأمور لا يؤيد هذا الرأى ؛ لأن النصوص الزجلية التى وصلت إلينا قد كُتبت بعد أن أصبحت الموشحات فناً قائماً بذاته ، واحتلت مكانتها وثبتت أقدامها .



ولذلك فإن القرائن والمؤشرات تذهب إلي أن الزجل قد ظهر متأخراً بعض الوقت عن التوشيح ؛ لأنه يشكل المرحلة الثالثة لتحول الشعر العربي في الأندلس حيث قد سبقته مرحلة الشعر الفصيح ، ثم مرحلة شعر الموشحات . ولعل ظهور فن الزجل واستوائه كان أمراً طبيعياً حتى يناسب ذوق وفهم العامة من أبناء الشعب والأعاجم خاصة عندما استولى البربر على الأندلس فى عهد ابن تاشقين كان لابد للشعر أن ينتكس بصورة أو بأخرى حتى يسهل فهمه على هذا الفريق من العوام .

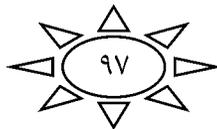
موضوعاته :

أما عن موضوعات الزجل ، فقد كان فى أول نشأته مقصوراً على الغزل واللهو والمجون ، ثم أصبحت قصائده - إن صححت أن نسميها قصائد - تعالج الوصف والفخر والهجاء والزهد والرثاء والمديح وسائر الفنون الأخرى .

بناؤه الفنى :

أما من حيث البناء الفنى للزجل فإنه يخضع لبعض القيود الفنية التى تخضع لها الموشحة ولكن قيوده وتكوينه أخف قليلاً من تلك القيود التى تخضع لها الموشحة .

فالزجل يستفتح كالموشحة بالذهب أو المطلع ، ثم بعد ذلك الدور ، وكل دور ينتهى بقفل ، وينتهى الزجل أيضاً بخرجة من بحر وتمافية المطلع والأزجال . ومن هذا المنطلق ظهر زجالون كثيرون فى الأندلس ، وإن لم يصل عددهم إلي نصف عدد الوشاحين وكان على رأسهم أبو بكر ابن محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قرمان الأصفر ، الذى بدأ شاعراً ، فلما أحس أنه لن يصل إلي مرتبة الشعراء



الكبار، وأنس في نفسه القدرة على الإبداع في الشعر العامي ، اتجه إلي الزجل وأجاد فيه واحتل فيه المرتبة الأولى وتبوأ مقاماً في الزجل يشبه مقام المتنبي في ميدان الشعر الفصيح .

ومن ألوان الزجل الرقيقة عند ابن قزمان قوله في كبش العيد :

- ❖ حبيبي كبش العيد أنا حريفك
- ❖ لس تصطحى تنفر؟ ارحم ضعيفك
- ❖ إش حال جبينك إش حال صديقك
- ❖ إش حال شواياتك إش حال قديك
- ❖ من يرانى ثالث العيد وأنا نقطع ونشوى
- ❖ وترى كبش معلق والقطيطنس تحت يعوى
- ❖ وأنا عريان في السراول أو في منديل خبز ملوى

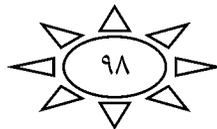
وإذا كانت بيئة الأندلس وطبيعتها قد فتنت الشعراء والوشاحين ، فلا شك أنها قد فتنت الزجالين أيضاً ، ولم يختلف الزجل هناك عن المشاركة في هذا الميدان ، وفي هذا يقول ابن أبي نصير في وصف الطبيعة :

لا شراب إلا فى بستان	∴	والريبع قد فاح نوار
يبكى الغمام ويضحك	∴	أقحوان مع بهار
والياه مثل الثعابين	∴	فى ذلك السواقى داراً

ومن أرق قصائد الزجل التى عالجت وصف الطبيعة مقطوعة زجلية للزجال

أحمد بن الحاج من غليس حيث يقول في روضة رقيقة :-

ثلاث أشيا فالبساتين	∴	لس تجد فى كل موضع
---------------------	---	-------------------



النسيم والخضر والطيير	∴	شم واتننز؛ واسمع
-----------------------	---	------------------

ومن أرق الألوان الزجلية هذا الزجل الغزل لابن عمير، والذي يطلب فيه من محبوبه أن يلين ويتعطف عليه بالوصال، وكفى ما وقع من هجر وقطيعة فقد زرف دموع عينيه واللهيب قد اشتعل بقلبه فيقول :-

يا حبيب قلبي تعطف	∴	بعد هذا الهجر يكفا
فدموع عينى ما ترقا	∴	ولهيب قلبي ما يطفأ

ومن الخمریات الخالصة ما أنشأه أبو بكر بن صارم الإشبیلی الذي كان يتردد على الديارات ومجالس الشراب، ويغرق نفسه فى دنان الخمر حيث يقول :-

حقاً نحب العقار **** فالدير طول النهار *** نرتهن

خلع لس قد عين فلان

نشرب بشقف القدح كف ما كان

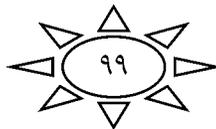
للدير فرترانى عيان

ومن أزجال المديح قول ابن قزمان يمدح القاضى أحمد ابن الحاج
مُلبساً إياه ما يناسبه من صفات :-

أى نهار نراك فى دارك وات قد جلست للناس

والخصام يعطى ويمنع والزحام وفر الأنفاس

وانت تحكم فى المناكح والغصب والدين والأحباس



والمواريت والخبايات والنظر فى أموال الأيتام

وعلى كل لم نستطع أن نقف أمام ظاهرة الزجل وقفة المأخوذ المعجب الذى يطيل النظر إليه ، ويمعن التفكير فيه شأن وقفنا أمام الموشحات لأن الزجل يُعد نظرة تخلف وتراجع إلي الوراء ، وانتقاص من الفن وقدره على خلاف الموشحات بما فيها من براعة وجدة ورقة وأناقة وموسيقى .

